# مؤثـــرات الشمال على منطقة الســـودان الغربي قبل دخول الإسلام.

أ. رجب محمد حركات دلالـــــه ـ قسم التاريخ ـ جامعة الزاوية

## المقدمـــــــــــــة:

لم تكـــن تأثيرات الشمال على الجنوب وليدة يـــوم أو لحظة دخول الإسلام إليه، أو بفترة تسبقه بقليل؛ بل كانت قديمة مما يعطي دلالة قاطعة بأن الحواجـــز الطبيعية من الصحراء وما يتبعها من تقلبات لم تكن حاجزاً يفصل بين الشمال عن الجنوب، حيث شاعت بعض التأثيرات بمنطقة الســـودان الغربي (*) ، والتي ترجع إلى فترات قديمة، تم نسبتها إلى خارج المنطقة من الشمال الأفريقي وإن كانت الإشارة إلى هذه التأثيرات محدودة ، ولم تغط جوانب الحياة بالمنطقة كافة، ولم يتم إثباتها بشكل قطعي، حيث اقتضت الطبيعة البشرية التعايش والاختلاط، والتآلف بين البشر، ومن حدوث التأثير المتبادل بينهم أفرادا وجماعات.

## إشكاليات الدراســـــــة :

تعالج هذه الدراسة بحسب طبيعتها موضوعا ألا وهـــــو معرفة تأثير الشمال الأفريقي على جنوب الصحراء في الفترة السابقة لدخول الإسلام للمنطقة.

## تســـــــــاؤلات الدراســـــــة :

هل كان الشمال الأفريقي على صلة مع منطقة ما وراء الصحراء منذ القدم؟ وكيف وصلت التأثيرات المصرية إلى منطقة السودان الغربي؟ وهل كانت التنظيمات الإدارية في منطقة السودان الغربي تأثيرات وافدة إلى المنطقة؟ وهل كانت تسود المساواة بين أفراد المجتمع السوداني؟

## أهداف الدراســـــــة :

تهدف هذه الدراســـة إلى تحقيق الآتي:

1- التعرف على تأثيرات الشمال الأفريقي (المغرب) على الجنوب .

2- أبرز التأثيرات المصرية على المنطقة .

- معرفة أهم سمات الحياة السياسية لبلاد السودان الغربي في تلك الفترة.

4- معرفة أهم سمات الحياة الاجتماعية بمنطقة السودان الغربي خلال تلك الفترة

**أهمية الدراســـة :**

تكمن أهمية الدراسة في معرفة تأثير الشمال الأفريقي على جنوب الصحراء في الفترة السابقة لظهور الإسلام للمنطقة وتحليل لأبرز أنماطها السياسية والاجتماعية. ونظـــرًا لقلة الدّراسات التي تناولت هذه الفترة تحديداً ، هنا تكمن أهمية تناول هذا الموضـــوع.

**منهجية الدراســـــــــــة :**

اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي- السردي في تناول تأثيرات الشمال الأفريقي على جنوب الصحراء.

**تقسيمات الدراســـــــــة :**

المبحث الأول : تأثير الشمال الأفريقي (المغرب) على الجنوب، والمبحث الثاني : تأثير مصر على السودان الغربي ، والمبحث الثالث : سمات الحياة السياسية لبلاد السودان الغربي ، والمبحث الرابع: سمات الحياة الاجتماعية بمنطقة السودان الغربي.

**المبحث الأول : تأثير الشمال الأفريقي (المغرب) على الجنوب:**

كان الشمال الأفريقي على صلة مع منطقة ما وراء الصحراء منذ القدم، حيث يشير باسيل ديفتسون (BAISIL DAVISON) إلى أن أفارقة جنوب الصحراء استفادوا في استعمال الحديد من أصدقائهم التجار الليبيين قبل 500 عام قبل الميلاد (1) ، مما يؤكد هذه الصلة أيضاً على الرغم من نسبة تعلم زنوج أفريقيا الغربية صناعة الذهب والقصدير من قرطاجة (2) على اعتبار الفينيقيين * كانوا أكبر ممتهني المعادن في حوض البحر المتوسط القديم ، حيث بدأوا صناعة الحديد في قرطاجة منذ القرن السابع ق. م في حين انتشر العمل في الحديد في كل أفريقيا الغربية منذ القرن الرابع ق.م (3) ، كما أن الفينيقيين أسسوا في القرن الخامس ق. م مستعمرات تجارية على الساحل الغربي لأفريقيا (4) ، حيث تم وصف تلك العلاقة بين الشمال والجنوب من خلال مبادلات القرطاجيين لبضاعتهم بالذهب في بلاد تقوم وراء أعمدة هرقليطس ، وقد عبرت السفن القرطاجية نهر السنغال لحرصها على الوصول إلى مركز الذهب حيث تتم عمليات المبادلات التجارية (5) ، ويشـــــير أ.ف غونتية ( A.F GUNTE) إلى ذلك قائلاً:"...وفي أفريقيا الغربية الســوداء نشاهد بقايا الآثار المتوسطية القديمة التي صنفتها قرطاجة (6).

وأثبتت الكشوف الأثرية في منطقتي الكونغو، وزائير الساحلية أن الفخّار الذي تميز بقاعدته المسطحة له صلة بالفخّار الأبعد في الشمال ، والذي يرجع إلى حوالي الألفية

الخامسة قبل الميلاد وظهرت في غانا مؤثرات الشمال والغرب في زخرف الفخار ورؤوس الأسهم الحجرية[7]. ، و يظهر أن هذه الصلات تم تأكيدها على أيدي الجرامنت حيث يُعتقد بأنهم زنـــوج خفيفو السواد . فتشارلز دانيلز( CHARLES DANIELS) يذكر أن أحد الباحث سيرجي (SERGI) يرى أن بعض المميزات الزنجية قد بدت عندهم في الأزمنة المتأخرة [8] مما يعطي دلالة على وجود نوع من الاختلاط بينهم وبين السود القابعين أسفل منهم ، وكيف لا يحدث الاختلاط وسبل التجارة مفتوحة بين الجرامنت والسودان عبر فزان * ، وما يعرف بغدامس حالياً، حيث يعتبر طريق فزان تشاد والنيجر ، ونحو أعالي السنغال مروراً بالإدرار الموريتانية من أبرز الطرق التجارية المنتشرة في ذلك الوقت [9] . ولم يقتصر هذا التأثير على قبائل الجرامنت ، بل يبدو أن القبائل الليبية الأخرى كان لها تأثيرها ، فالنسامونيس* كانوا يزاولون الكهانة بالذهاب إلى قبور أجدادهم حين يصلون ثم ينامون ، ويعتبرون أن أي حلم يرونه في منامهم هناك هو قول أجدادهم لهم [10] ، وعبادة الأسلاف أصبحت من العبادات المنتشرة ببلاد السودان الغربي فيما بعد.

شمل تأثير الشمال –أيضاً- الزراعة، حيث أن الفلاحة في غرب أفريقيا قد بدأت باعتبارها نتاجاً للصلة مع الشمال [11] وكذلك على صعيد الحيوانات ، من بينها الجمل، الذي تم إدخاله إلى المنطقة من خلال الشمال الأفريقي[12].

نلاحظ من خلال ما سبق أن الصلة بين الشمال والجنوب كانت قديمة ، حيث إن المعاملات التجارية كانت قائمة بينهم مما سهل سبل اتصال أخرى ، وإن كانت الإشارة إلى هذه الصلات محدودة.

## المبحث الثاني ـ تأثير مصر على السودان الغربي:

ظهرت التأثيرات المصريـــة على المنطقة بشكل واضح على الحياة الاجتماعية والدينية، والإشارات التي تطرقت لهذه التأثيرات ترى بأن مصر هـــي الأخـــرى قد تأثرت ببعض أنماط الحياة الأفريقية القديمة، مما يعطي انطباعاً بأن الصحراء الكبرى لغربي وادي النيل، والمناطق الاستوائية لجنوب مصر لم تقف حائلاً يفصلها عن باقي أفريقيا منذ القدم.

بـــرزت هذه التأثيرات وتم إثباتها ، حيث يظهر تماثل لنماذج الآلات الموسيقية في مصر القديمة ، وفي غربي أفريقيا، يقول محمد عبدالفتاح عن ذلك:"...وفي قبر امينمحات أحد موظفي تحوتمس الثالث بطيبة نجـــد رسماً لامرأة تعزف على (قيثارة ) في صحبة رجل يعزف على عود أو مزهر، وللمزهر طابع خاص لطول عنقه، وفي

المتحف البريطاني عدة نماذج من (القيثارة) والمزهر، ذي العنق الطويل ، وقد جيء بهذه المجموعة من غربي أفريقية[13].

يبـــدو أن هذا التماثل كان متطابقاً بين الآلتين في كلا المنطقتين تطابقاً يوحي بانتقال التأثير من مصر إلى منطقة السودان الغربي، وأوجه الشبه لم تقتصر على الآلة فحسب، بل كذلك على أنواع معينة من المعدات والأسلحة الحجرية[14]، وعلى صعيد بعض المعتقدات التي مازالت موجودة لدى قبائل غرب أفريقيا اليوم، حيث إن بعض الآثار التي عُثر عليها في زيمبابوي ترجع إلى تأثيرات مصرية[15].

فطريقة دفن الموتى لدى المصريين القدماء وما يكتنفها من طقوس معينة لحماية أجساد الموتى عبر التحنيط ، ودفنهم مع ممتلكاتهم في مقابر محكمة ومتقنة، وما يصاحب الميت في قبره من معدات وثروات ، وخدم ، تكاد تكون نفس طقوس دفن ملوك غانة، حيث إن بعض الأشياء الخاصة بدفنهم وما تحتويه من حبات زجاجية ذات مصدر مصري [16]، فكيف وصلت هذه التأثيرات إلى منطقة السودان الغربي؟

قد يكون ذلك من خلال التجارة عبر الطرق التي تربط مصر بالمنطقة ، أو قد تكون وصلت عن طريق المغرب ، حيث يوجد تشابه بين النقوش التي عثر عليها في المغرب، والأخرى في مصر ، إذ أن جميع الصور التي وجدت على لوحات تاسيلي تمثل رجالاً لهم رؤوس حيوانات والتي هي من مميزات الفن المصري، كما أن مقابر الصحراء تظهر على هيئة أكوام الحصى[17] مما يوحي بتقليد مماثل لمقابر المصريين الهرمية الشكل ، وبالتالي فإن تأثر المغرب بمصر قد يؤدي إلى نزوح هذه التأثيرات إلى الجنوب.

لم تقتصر التأثيرات من جانب مصر على هذه المنطقة، بل كان للسودان الغربي تأثيره على مصر من خلال بعض الجوانب:

- يرى الشيخ عنتاديوب بأن ديانة السودان (الطوطمية) وما يتبعها من طقوس لعبادة بعض الحيوانات والنباتات هي نفسها الطابع المحّرم لدى المصريين لبعض الحيوانات والنباتات[18].

- من الأمور الشائعة لدى المصريين على صعيد حياتهم الاجتماعية زواج الأقارب، ولاسيما زواج الأخ من أخته، قد يكون سببها انتشار بعض مظاهر الثقافة الراسخة في عالم العرق الأسود وهو ما يعرف بنظام "الأمومة"[19].

- من الطقوس الشائعة على صعيد الحياة السياسية في مصر ، هي الحكم بالإعدام على الملك في حال خوار قوته وكبره ؛ لأن هذه الشخصية المقدسة يجب أن تكون حائزة

على القدر الأكبر من القوة الحيوية حتي لا يُعرض شعبه للخطر. وهذا المفهوم الملكي يكاد يكون أساساً لكل الملكيات التقليدية الأفريقية[20].

- يوجد شبه بين الإله الثعبان دوغـــون بغانة، والإله الثعبان للبانتيون المصري [21].

يُستشف من خـــلال ما سبق أن منطقة السودان الغربي لم تكن بمعزل عن غيرها من المناطق ، بل كانت هناك صلات قديمة تربطها بمصر وبالشمال الأفريقي، ولم تقتصر مظاهر التأثير عليها، بل أثرت هي الأخرى على بعض مناحي الحياة بمصر ، وإن كانت الإشارة إلى هذه الحقبة الزمنية غير وافية بسبب قلة المصادر والمراجع ، إلا أن ما توفر منها يعمل على تأكيد الصلات القديمة بين الجانبين.

## المبحث الثالث ـ سمات الحياة السياسية لبلاد السودان الغربي:

كان للسودان الغربي حياته السياسية التي تميزت في بعض جوانبها بأنماطها الأفريقية، ويمكن ملاحظة ذلك جلياً في صورة تنظيمات ، أو بالأحرى ممالك كان لها نظمها وطقوسها السياسية الخاصة بها ، التي أعطتها الطابع الأفريقي، بغض النظر عن التأثيرات التي تلقتها من الخارج، فمن خلال هذا المبحث سنحاول التركيز على أبرز الأنماط الأفريقية التي اتسمت بها الحياة السياسية بالسودان الغربي، والتي ستتم دراستها على النحو التالي:

**اولاً ـ أنظمة الحكم:** كانت القبيلة تشكل النواة الأساسية لأنظمة الحكم، حيث ينقسم المجتمع السوداني إلى عدد من القبائل التي تستمد سلطتها من سلطة رئيسها ، الذي يعمل على تنظيمها، وتوفير الأمن ، ومصادر العيش، وسن القوانين [22]، وبالتالي فإن العشائر كافة التي تنطوي تحت مظلة القبيلة تخضع لسلطانه . وكان شيخ القبيلة يمارس صلاحيات سلطته بالولاء، والحب ،والإكرام، حيث كان من واجبه توفير الأمن لقبيلته ضد الأخطار المداهمة لها، فهذا هو الغالب على الحياة السياسية بالمنطقة، حيث إنَّ المجتمعات الأفريقية مجتمعات قبلية ، يغلب عليها التنقل والترحال من مكان إلى آخر[23]. وكان لكل قبيلة عملها الخاص بها ، فمثلاً الغالب على قبائل الفلان الرعي وتربية الحيوانات ، وبعض الزراعات المعتمدة على الأمطار [24] إلا أن الأهم بالنسبة لهذه القبائل هو تمكن بعضها من تأسيس أو الإسهام في قيام ممالك سياسية لها أنظمتها على الصعيد السياسي ، فمثلاً ، يُعزى قيام غانة إلى قبائل الصوصو ، والسنونك ، وقيام مالي إلى قبائل الماندنجو ، وسنغاي إلى قبائل الصنغي ، وهكذا . كما أن البعض من هذه القبائل أسهم في سقوط أو تقليص حدود بعض الممالك ، كما هو الحال لدى مالي ، حيث كان لهجوم قبائل الولوف والسيرر والموسي[25]، دور في سقوطها أو تقليص

حدودها ، مما يعطي انطباعا بأن تلك القبائل كانت على درجة من القوة ، والتنظيم العسكري، الأمر الذي مكنها من الهجوم على مملكة تعد من أعظم الممالك بالمنطقة في تلك الفترة، كما أن في ذلك إشارة إلى أن سلطة الدولة لم تكن محكمة على أقاليمها ، أي : وجود نوع من الحرية أو الاستقلال لتلك القبائل عن سلطة الملك ، وإذا ما انتقلنا إلى تنظيم الممالك ، فمن خلال غانة يمكننا ملاحظة سلطة الملك الذي يساعده في ذلك عدد من الوزراء والموظفين الذين أغلبهم من المسلمين [26]، مما يضعنا أمام أمرين أولهما ثقة الملك بقدرات هؤلاء المسلمين وأمانتهم، والذي يبدو أنهم يشكلون جالية عربية بالمملكة، والأمر الثاني الذي يثير تساؤلاً بخصوص هذا الجانب ؛ هل الزنوج ليس لديهم القدرة الإدارية الكافية على تسيير شؤون مملكتهم؟

كانت المملكة تنقسم إلى عدد من الولايات التي تُدار من قبل ولاة ينوبون عن الملك في تسيير شؤون تلك الجهات ، بالإضافة إلى القاضي الذي كان يعرف بالأمين، والذي يعمل على حل المشاكل والمنازعات اليومية بين الناس ، وكان لملك غانة طريقته الخاصة في فرض ولائه على ولاة أقاليمه، حيث كان يتحفظ بأبنائهم كرهائن عنده في القصر معززين مكرمين، حتى يضمن ولاءهم له [27]، كما كان الهدف الأساسي لحكام غانة، المحافظة على أهميتها التجارية من خلال إحكام سيطرتهم على (أودغست) ؛ لأن ذلك يعني الحفاظ على سلطانهم ونفوذهم الملكي، ولأجل ذلك نجدهم يقومون بتقديم الهدايا المنتظمة لزعماء القبائل ، وقادة الأقاليم، حتي يضمن ولاء سيطرتهم على أهم المنافذ التجارية[28]، أما مالي فهي الأخرى يعتمد التنظيم السياسي بها على تقسيم المملكة إلى إدارات إقليمية تعرف باسم الكافوات أي: الأقاليم ، التي تنقسم إلى الدجوات أي : بمعني القرى بحسب لغة الماندنجو، وكانت هذه الأقاليم والقرى تُدار من قبل أمراء أو حكام يدفعون الجزية للملك الذي تساعده زوجته في الحكم التي تلقب في لغة الماندنجو باسم ( قاسا) أي: الملكة او الزوجة الكبرى [29]، فمشاركة المرأة في الحكم يرفع من قيمتها في المجتمع السوداني ، ويعطي نوعاً من الرقي الحضاري ، الذي يقودنا للتساؤل هل مشاركة المرأة في الحكم في مالي أمر متأصل في المجتمع السوداني؟ أم هو أحد التأثيرات الوافدة إليه من الخارج؟

لقد شهد قيام دولة مالي سن دستور لها يقضي بتعزيز بعض التقاليد والأعراف التي لاتزال تنظم العلاقات بين مختلف القبائل بالمنطقة، وكان من أولويات هذا الدستور هو أن ينادي بسينداتا كيتا إمبراطوراً للمملكة، وأن يعرف باسم منسى (إمبراطور) أي: ملك الملوك [30].

أما إمبراطورية سنغاي فلم يختلف تنظيمها عن مالي ، حيث سلطة الإمبراطور في المركز، ومن حولها تتجمع الدول أو الأقاليم التابعة التي تدفع الجزية وتقدم الهدايا المعتادة للملك، حيث يكون لها ممثل مقيم في البلاط الإمبراطوري، وبإمكان هذه الدول الاستقلال في حال ضعف السلطة المركزية، وبالتالي فإن الملك حريص على اختيار نوابه عن الأقاليم، بحيث لا يحصل على هذا المنصب إلا الذي يتمتع بثقة الإمبراطور الكاملة ، حيث إن التنظيم الإداري لسنغاي مقسم على ثلاثة مستويات نواب الملك الكبار الثلاثة، الكرمن فار الذي يسيطر على المناطق الشمالية ، والدندفار الذي يسيطر على المناطق الجنوبية، والباغن فار * الذي يسيطر على المناطق المتاخمة لمالي[31].

يتضح من خلال ما سبق أن أنظمة الحكم بالمنطقة تستند بالأساس الأول على القبيلة، التي كان لها دور في تأسيس كيانات سياسية على مستوى عالٍ ، وإذا ما نظرنا إلى التقسيم الإداري لتلك الممالك، حيث يتم تقسيمها إلى ولايات، بإشراف ولاة ينوبون عن الملك في حكم ولاياتهم فهل هذا التنظيم الإداري مستوحى من السودان؟ أو هو تأثير خارجي وافد إلى المنطقة؟

يتضح أن هذه التأثير وافد على المنطقة من الخارج، حيث إن أغلب المجتمعات الأفريقية مجتمعات قبلية لم تعرف التنظيمات الإدارية إلا من خلال اختلاطها بالشمال ، وبخاصة بعد انتشار الإسلام وتغلغله بينهم .

**ثانيا ـ التنظيم العسكري:** قد أدت الضرورة الأمنية بالمنطقة إلى وجود نوع من التنظيم العسكري اتجهت إليه الأنظمة السياسية للدفاع عن ممالكها ضد الأخطار المحدقة بها من كل جانب، والتي يهدد كيانها السياسي والاقتصادي، أشار مارمول كرفجال (MARMUL KARFAJAL) إلى شجاعة أهل السودان بصفة عامة وبراعتهم في الحرب بالنبال التي يشترك فيها الرجال والنساء على السواء، يعلّمون وجوههم بجراح عديدة ليتميزوا بها في ميادين الحرب [32]، كما يشير البكري إلى تعداد جيش غانة بقوله :" ينتهي جيشة [ملك غانة] مائتي ألف منهم رماة أزيد من أربعين ألفا"[33]، ففي هذا النص إشارة إلى ضخامة جيش غانة، مما يعكس حرص ملكها على إعداد جيشه ، وتنظيمه وتقسيمه إلى رماة، ونحو ذلك من التنظيم العسكري حيث يشير جوان جوزيف إلى ذلك بقوله : " كانت تمتلك [ممالك السودان الغربي] أقوى الجيوش المحاربة في التاريخ الذي كان يعاصر زمانها، وأن جيش إحدى هذه الإمبراطوريات كان تعداده يتجاوز مائتي ألف محارب من قادة وفرسان وضباط وجنود ، وكلهم كانوا مسلحين بأقوى الأسلحة التي كانت مستعملة في ذلك الزمن" [34].

يستنتج من خلال هذا النص أن جيش غانة مجهز بالأسلحة القوية، التي يبدو أن بعض القبائل تختص بصناعتها، حيث إن قبائل السنونك كانت تصنعها من الحديد، في الوقت الذي كانت فيه القبائل الأخرى كانت تصنع أسلحتها من فروع خشب الأبنوس الأسود الثقيل [35] ، وقد كانت هذه الأسلحة متنوعة ما بين نشابات، ودبابيس، وسهام ، وقسي، حيث يصنف العمري سلاح ملك مالي قائلاً:" وعنده سلاحه من ذهب كله ، سيف ومزراق وتركاش ، وقوس ونشابُ"[36]، الأمر الذي يمكن ملاحظته بشأن التنظيم العسكري بمملكته مالي هو ما يعرف بالترقية العسكرية في وقتنا الحاضر حيث تتم ترقية الفارس بارتدائه لأساور من ذهب ، وكلما زادت مقدرته العسكرية لبس معها أطواقاً، وإن زادت لبس معها خلاخل ذهب ، كما يقوم الملك بإلباسه نوعاً خاصاً من الملابس[ سراويل متسعة]، وكلما زاد في فروسيته زاد في كبر سراويله[37]. ويصف الباحث أبو أمادوبا القوة العسكرية بمالي فيقول:" إن القوة العسكرية بمالي كانت عبارة عن رابطة مغلقة ومحاطة بكثير من أسوار منطقة السافانا والغابات، وكانت مهمتها الدفاع عن المجموعات القروية"[38].

نلاحظ من خلال هذا النص أن كل قبيلة تقوم بتأسيس وحدة عسكرية تتولي من خلالها الدفاع عن كيانها أما التنظيم العسكري بسنغاي فقد غلب عليه التأثيرات العربية الإسلامية، من حيث تنظيم وإعداد الجيوش والتخطيط والتكتيك للمعارك.

يظهر من خلال ما سبق أن هناك نوعاً من التنظيم العسكري شهدته ممالك ودول السودان الغربي ، حيث تمكنت بفضله من توسيع نطاق نفوذها ، وصد هجمات منافسيها مما يضفي عليها مسحة حضارية أسوة بغيرها من الممالك، وشيوع هذه التنظيمات يعمل على تأكيد الصلة المتواصلة بين الشمال والجنوب.

**ثالثا ـ الطقوس والعادات الأفريقية المتبعة على صعيد الحياة السياسية بالمنطقة :**

تعتبر عادة توريث ابن الأخت بولاية العهد من قبل الملك من أبرز العادات المتبعة على صعيد الحياة السياسية ، وحججهم في ذلك عدة منها أن العظم من الأم واللحم من الأب ، وكذلك قولهم إن يوم البعث لن تتعرف الأم على ابنها ولا الأب على ابنه وإنما الخال وحده هو الذي سيتعرف على ابن أخته[39] ، في حين يفسره البكري بقوله :"ومذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك ؛ لأنه لا يشك في ابن أخته ، وهو يشك في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به[40] ، يبدو أن هذا التفسير هو الأقرب للصواب ، بحيث لا يوجد لديهم نظام معين ينظم الزواج ، ويحدد النسل ، وخاصة قبل انتشار الإسلام و تعميمه بينهم، وبالتالي فإن الدافع الأساسي لاتباع النظام الأمّي، ونظام

التوريث يختلف بين قبيلة وأخرى ببلاد السودان، فالبكم* يورثون الابن الأكبر مال الأب كله (41).

إن من أهم التقاليد الأفريقية المتبعة في الممالك تقتضي رفع مكانة الملك لدرجة التقديس ، حيث ينظر للملك كونه حلقة الوصل بين الموتى والأحياء، أو بمعنى آخر له دور سياسي روحي مهم(42)، ولأجل ذلك فإن الملك يحظى بكل مظاهر التبجيل والولاء من قبل الناس ، ويحاط بمظاهر العظمة والثراء كافة، حيث تخصص له مدينة خاصه به، توجد بها قصوره وقبابه المزينة بالنقوش والرسوم، كما بها سجون الملك. وكان الملك يتحلى بحلي النساء في العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة(43).

وقد نقل لنا الكتاب العرب ذلك حيث يصف البكري مظاهر التقديس هذه قائلاً: "وهو يجلس للناس والمظالم في قبة، ويكون حول القبة عشرة أفراس بثياب مذهبة،...وحواليه الوزراء جلوساً على الأرض...فيجتمع الناس، فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم، ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلك تحيتهم له، وأما المسلمون فإن سلامهم عليه يكون تصفيقاً باليدين(44).

أما العمري فيصف لنا جانباً من مظاهر التبجيل التي تحيط بملك مالي قائلاً:"...ومن عطس في مجلسه ضرب ضرباً مؤلماً ولا يسامح أحداً في هذا، وإنما إذا جاءت واحداً منهم عطسة انبطح على الأرض، وعطس حتى لا يعلم به، وأما الملك فإنه إذا عطس ضرب الحاضرون بأيديهم على صدورهم(45) ،والقلقشندي يضيف بقوله:"...ولا يدخل أحد دار السلطان منتعلاً كائناً من كان ، ومن لم يخلع نعليه قتل بلا عفو عامداً او ساهياً"(46)، وتعظيم أهل السودان، لم يقتصر على ملوكهم، بل على كل الملوك أينما وجدوا، وأبرز مثال الوفد الذي أرسله منسى جاطة (زاطة) في إطار الصداقة والأخوة مع الدولة المرينية وتحديداً في عهد السلطان أبي سالم(760-762هـ/1359-1361م) ، الذي قام الوفد السوداني بتحيته بوضع التراب على رؤوسهم على عادتهم في تحية ملوكهم(47).

نستشف من خلال هذه النصوص مدى التعظيم والقداسة المحاطة بالملك، ومدى احترام الرعية له ، وعدم تجاوزهم لحقوق عظمته هذه، كما أن هذه المظاهر فرضت على الملك بأن لا يأكل في حضور أحد على الإطلاق ، كما لم يكن بمقدوره في المناسبات الرسمية مخاطبة أي شخص مباشرة ، بل يتم ذلك من خلال موظف يُعرف يترجمان الملك(48)، يبدو أن الملوك قد حصلوا على هذه المكانة باعتبارهم بمرتبة الآلهة أو كنواب

عنهم، فمثلاً نجد أن زعيم قبائل الموسي يعد الحارس الرئيس لشعبه، وجرت عادته باستشارة أسلافه بانتظام[49]،ومن عاداتهم في دفن الملوك ، أن تدفن معهم حاجياته كافة التي كان يستعملونها من حلي وأسلحة وصحون وكؤوس مع بعض الأطعمة والشراب، ويدفن معهم بعض المقربين إليهم من الطباخين والسقاة لخدمة أرواحهم هناك [50] ، ويجب أن تقدم القرابين لروح الملوك فهم لا يموتون ، بل يقصدون العالم الآخر، ويظل موتهم سراً حتي يرتقي العرش ملك جديد[51] ،وهذه عادات شائعة لدى المصريين القدماء ، وربما يكون التأثير قد قدم من هناك.

هذه أبرز العادات والتقاليد السائدة على صعيد الحياه السياسية بمجتمع السودان الغربي وممالكه، والتي يتضح من خلالها، أن للحياة الاجتماعية دوراً في فرض وتحوير بعض الطقوس والعادات المتعلقة بالحياة السياسية كعادة توريث ابن الأخت، والتي مرجعها لعدم تنظيم الزواج وتحديد النسل ، كما أن مظاهر تعظيم وتقديس الملك تظهر لنا بأن العقلية الأفريقية بالمنطقة لم تصل بالفرد إلى السمو والرقي بالإنسان البعيد عن الإذلال، والذي لا يرضى بالتقديس والتعظيم إلا لله، وهذا الأمر لم يتم إلا بعد انتشار الإسلام في المنطقة ، وإن كان بنسب متفاوتة بين مملكة وأخرى.

فإذا كان للحياة الاجتماعية دور في تسيير بعض جوانب الحياة السياسية بالمنطقة فما أبرز مظاهرها؟

## المبحث الرابع ـ سمات الحياة الاجتماعية بمنطقة السودان الغربي :

اعتاد السكان ببلاد السودان الغربي على عادات وتقاليد اجتماعية، يطغى على أغلبها الطابع الأفريقي الذي يميزها عن غيرها من المجتمعات الأخرى، حيث إنه من خلال دراستها يمكننا معرفة مدى تطبع الشخصية السودانية بالطابع الأفريقي، كما أن دراسة الجوانب الاجتماعية تساعد في فهم الأسباب التي أدت إلى تشبث الفرد بالمنطقة بهذه الأنماط والعادات، كما تمكننا من الوقوف على أبرز النواحي الاجتماعية التي غيرها الإسلام في حياة أهل السودان الغربي فيما بعد، وتنقسم دراسة هذه الجوانب على النحو التالي:

**اولاً ـ مجتمع السودان الغربي :** يتميز مجتمع السودان بصفة عامة، والسودان الغربي بصفة خاصة بكونه مجتمعاً قبلياً ينقسم إلى عدة قبائل حيث إن رابطة الدم هي التي تجمع أفراد القبيلة ، بحكم الانتماء إلى أب أو جد واحد، وكان لكل قبيلة عاداتها وطقوسها التي يحرص شيخها على اتباع أفرادها لها [52] ، فهذه العادات تصل بمنزلة التقديس لديهم ،

فهي الموروث عن آبائهم، كما تمكن بعض هذه القبائل من تأسيس ممالك كان لها أنظمتها، وإذا ما تساءلنا هل تسود المساواة بين أفراد المجتمع السوداني؟

يمكن الإجابة بأن المجتمع السوداني مجتمع طبقي سواء كان ذلك على صعيد حياة الفرد في القبيلة ، أم على صعيد حياته في الممالك، حيث تتربع الأسرة الحاكمة والحاشية والنبلاء ، و قواد الجيش، وولاة الأقاليم على الطبقة الأولى ويأتي إثر ذلك التجار والقضاة والأئمة والمدرسون ، ثم تأتي طبقة العبيد والأقنان ، وأصحاب الحرف[53]، حيث يقع على هذه الطبقة العبء الكبير في تلبية حاجيات الطبقة الأولي فكانت حياة العبد مرهونة بمدى قدراته على الإنتاج والإنجاز، وفي بعض الأحيان يصبح من أهم السلع التي تحرص الطبقة الأولي على توفرها للإتجار بها داخلياً وخارجياً تحت ما يعرف بتجارة الرق التي اعتبرتها أكبر معول لضمان امتيازاتها ، وثرائها [54]، وقد أشار الإدريسي إلى ذلك بقوله:"...وغانة يغيرون على بلاد لملم، ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم إلى التجار الداخلين إليهم فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار"[55]. كان بإمكان هؤلاء العبيد الحصول على حريتهم ،سواء بشرائها، أو باتباعهم السلوك الحسن فيتم عتقهم[56] ، وبالتالي فإن ظاهرة الرق ، كانت إحدى أبرز الظواهر الاجتماعية المنتشرة بمجتمع السودان الغربي خلال فترة العصر الوسيط، فهل حاول الإسلام القضاء عليها ؟ أو الحد منها. إضافة إلى ظاهرة الرق فهناك بعض العادات والتقاليد، التي عُرفت بتناقضها مع الإسلام وتعاليمه، كما سيأتي:

**ثانياً ـ العادات والتقاليد:** سيطرت على مجتمع السودان الغربي بعض العادات والتقاليد التي ميزته عن غيره من المجتمعات الأخرى، حيث يظهر الإرث الإفريقي واضحاً في تسيير حياة الأفراد بالمجتمع، فعلى صعيد اللباس والزي، نجد أن العُرى كان الشائع في المجتمع، هذا ما أكدته أغلب المصادر العربية، حيث يصفهم القزويني قائلاً: "عُراة كالبهائم لا يعرفون الستر"[57]،والبكري بقوله: "وهم يمشون عُراة إلا أن المرأة تستر فرجها بسيور تضفرها"[58] إلا أنهم في بعض الأحيان يسترون بارتداء الجلود، حيث يشير ابن سعيد أثناء وصفه للباس أهل السودان والتكرور :" والغالب على لباس السودان والتكرور وغيرهم الجلود ، وإذا احتشم الواحد منهم كان الجلد مدبوغاً..."[59] .

نلاحظ من خلال النصوص السابقة أن العُـــرى كان مظهراً شائعاً بين سكان المنطقة، فما السبب في ذلك يا ترى؟

قد يرجع ذلك إلى حرارة الجو الدائمة بالمنطقة [60]، في حين يرى محمود زناتي أن العُـــري من سمات المجتمعات القبلية حيث يقول :" كان العُري شائعاً في المجتمعات

القبلية ، ولا يعتبرونه عيباً ، ولا يثير انتباهاً، ولا يستشعر المرء من جرائه خجلاً أو حياءً ، بل إن أبناء هذه المجتمعات ينظرون إلى الذين يغطون أجسامهم بشيء من الاحتقار"[61]، فهل ذلك يعني أن العُري كان شائعاً بين طبقات المجتمع كافة ؟

يبدو أنه يسود طبقة دون الأخرى، حيث إن البكري أثناء وصفه لغانة يشير :" ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولي عهده ، وهو ابن أخته..."[62]، أما بخصوص الحلي فإنه يتحلى الناس بحلي مختلفة قد تكون في بعض الأحيان من العقيق والذهب ، وفي أحياناً أخرى من الحديد أو النحاس[63].

أما على صعيد المسكن ، فهو يختلف بحسب حال الفرد فبعضهم تكون بيوته عبارة عن خيام من جلود الإبل ، وبعضهم أكواخ من أغصان الأشجار، وبعضهم الآخر تكون بيوته من الأحجار والطين والخشب العريض الطويل ،[64]، في حين تنتشر القصور ذات القباب ، والأسقف المخروطية بين الملوك الذين يتفننون في تزينها بالحدائق ، وتطريزها بالذهب[56]، إلا أن الغالب على الطراز المعماري للسودان الغربي قبل خضوعه للمؤثرات العربية الإسلامية هو البناء المستدير المغطاة سطوحه دائما بالأخصاص والقش في شكل هرمي ، ليتكيف مع المناخ[66] ، ويحدد طـــراز البيوت المواد التي تتوفر عند بنائها ، حيث يكثر استخدام الطمي لوفرته[67]، وأكثر دلالة على انتشار فـــن تخطيط المدن هو إشارة البكري لمدينتي مملكة غانة[68]، أما عن عاداتهم في الأكل فإن الغالب على طعامهم الزبدة، والتوابل والسمك، حيث يشير الإدريسي إلى ذلك بقوله :" وأكلهم من سمك النيجر، وحيتان كبار وصغار ، ومنه طعام أكثر السودان يتصيدونه و يملحونه، ويدخرونه ، وهو في نهاية السمن والغلط[69] ، كما يأكل البعض من أهل مالي لحوم الثعابين والحيات بعد قطع رأسها، ويطبخونها بالملح والماء والشيح[70]،كما يظهر أن العوز والحاجة قد تدفع ببعض سكانها إلى أكل الجيف، ولحم الكلاب كما يشربون ألبان الإبل والماعز[72].

أما عن الأدوات المستعملة في إعداد الأكل فإن الطبيعة فرضت عليهم الابتكار، حيث نجدهم يتخذون من نبتة القرع الكبير آواني للأكل [73] ، كما قاموا بصنع القدور والأقداح من النحاس والفخار [74]، ومن الأمور الأخرى المألوفة لدى المجتمع الأفريقي بصفة عامة، ومجتمع السودان الغربي بصفة خاصة ميله الشديد لفن الطرب والرقص ، فما السبب في ذلك؟

يشير عبدالله أحمد بشير إلى ميل الزنجي للرقص بقوله :" والرقص مهم عنده لإثبات وجوده والإحساس بالآخر"[75]، في حين يرى الهادي الدالي أحد الباحثين في التاريخ

الأفريقي : أن الرجل الأفريقي ميال إلى الغناء والرقص ؛ لأن الفراغ القاتل لابد أن يدفع صاحبه إلى التفكير في ملئه ، وبذلك يتجه إلى الغناء والرقص أو الشعر..."[76].

يستشف من خلال النصيين السابقين أن الرقص والغناء يعتبران مكملين لشخصية الفرد، وإثبات وجوده ، ولقتل الفراغ السائد في حياته، أما ابن خلدون فيرى من وجهة نظره السبب في ذلك قربهم من منطقة الاستواء، حيث ترتفع درجات الحرارة فيقول:" قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش ، وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص ...والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه... ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار ، واستولى الحر على أمزجتهم ، وفى أصل تكوينهم كان في أرواحهم على نسبة أبدانهم وإقليمهم"[77] ، وقد يكون للرقص ارتباط ديني من وجهة نظر الباحث .

يعتبر الطبل من أكثر الآلات شيوعاً بالمنطقة فضلاً عن الدفوف والمزامير ، والأبواق، حيث يرجع إلى سومانجورو زعيم قبائل الصوصو اختراع آلة البلافون الضابطة للإيقاع الموسيقي وآلة الدان[78]، وبالتالي فإن الفرد يعبر عما يجول بداخله من أحاسيس من خلال الغناء والرقص الذي يشترك فيه الرجل والمرأة على السواء[79]، وتختلف المناسبات التي تتاح لهم لإظهار إبداعهم الفني في الرقص والغناء ، فقد تكون المناسبة الاحتفال بذكرى الأسلاف، حيث يرقصون بصخب حول قبورهم أو تماثيلهم[80]، وقد تكون المناسبة جني ثمار محاصيلهم، واستعدادهم الجماعي للشروع في عملهم، وهذه الرقصات تدوم لساعات طويلة، قد تشترك فيها قبيلة أو أكثر وقد تعرف الرقصات بأسماء مثل رقصة الحرب ،التي يجسد الطبل من خلالها العدو، كما أن بعض الرقصات تكون بالأقنعة التي ترمز لشيء غير مفهوم [81]، وقد يكون لها مغزى ديني ، كما يوسومون وجوههم بالنار كما هو الحال في مالي[82].

أما عن عاداتهم في الوفاة فمنها أن ينطلق البكاء والعويل على الميت ، ويقوم الأقارب والأصدقاء بدورهم بالمدح والرثاء ، ويُجرى تحقيق حول أسباب الوفاة قبل دفن الميت، لإقناع أسرته بدفنه، ويتولى الكهنة عملية التحقيق هذه، ويدفن بحسب مكانته الاجتماعية فأحياناً عند عتبة بيته، وأحياناً أخرى خلفه أو في المدافن العامة [83] وإذا كان الشخص لا قدر له في المجتمع كالفقراء والغرباء فإنه يرمي رمياً في الفلاة مثلما ترمى باقي الميتات[84].

هذه أبرز العادات المتبعة على صعيد الزي والمسكن والأكل، وما يسود حياتهم من مظاهر الصخب والرقص والغناء، التي يظهر من خلالها الفرد أحاسيسه حيال ما

يصيبه من فرح أو حزن ، إضافة إلى ذلك فإن المجتمع قد سار وفق عادات ذميمة أبرزها الآتي:

1- **عدم تنظيم الزواج وتحديد النسل :** لم يستند الزواج في مجتمع السودان الغربي إلى قوانين وأعراف تنظمه، بل تطغى عليه الفوضى، فليس للرجل والمرأة زوج معين بذاته حيث تتعدد الزوجات عند الرجل حتي تصل إلى الأربعين، وقد يجتمع على المرأة أكثر من رجل[85] ، كما أن الزواج كان يتم بغير صداق، يصفهم الأدريسي بقوله :" وهم يتناكحون بغير صدقات ولاحق..."[86]،ويذكر الوزان بقوله:"...وليس لأحد منهم امرأة خاصة به ، وإنما يرعون الماشية في النهار أو يخدمون الأرض ، ثم يجتمعون في الليل إلى اثني عشر رجلاً وامرأة في كوخ ، ويضاجع كل واحد من تعجبه أكثر من غيرها مرتاحين نائمين على جلود النعاج[87]، كما يجمعون بين الأختين [88]، وبالتالي فإن عدم وضع معايير تنظم الزواج جعلهم غير واثقين في نسب أبنائهم، مما يدفعهم إلى جعل ولاية الملك إلى ابن الأخت.

2- **أكل لحوم البشر ووأد الأطفال :** كانت هذه الظاهرة من العادات الذميمة المنتشرة في مجتمع السودان الغربي ، حيث يأكل بعضهم بعضاً، وفي حروبهم يأكلون لحوم قتلاهم ، يتحدث العمري عن مالي قائلاً:" وكذلك في طاعته (ملك مالي) قوم من الكفار، ومنهم من يأكل لحوم بني آدم..."[89]، وقد أشار ابن بطوطة لفعلهم هذا في أكثر من موضع[90] وفي بعض الأحيان يأكلون قلب أو مخ رئيسهم أثر وفاته حتي يرثوا في زعمهم صفاته و قواه الجسدية والعقلية [91] ، أو قد يرون في القلب أنه موطن الحكمة والذكاء والشجاعة معاً لذلك يحرصون على أكل قلوب من يقع أسيراً في أيديهم ممن عُرف عنه عمق التفكير، وحدة الذكاء[92] ، أما عن عادة وأد الأطفال ، فإنها تتم لاعتقادهم بأن روح الطفل شريرة ، وستجلب لهم الشر والبؤس، خاصة إذا كان الطفل المولود مشوهاً خلقياً أو إذا كان توأماً [93]، ويتضح أن السبب الحقيقي لهذه الظاهرة هي الضيق والعوز والحاجة.

3 - **السحر والشعوذة :** أحد الأمور الشائعة ببلاد السودان الغربي انتشار السحر والشعوذة بين أفراده، والسحر عندهم نوعان، نافع وهو يستخدم لفائدة الناس كجلب المطر لهم، وإبعاد الوباء عنهم ، والنوع الثاني وهو السحر الضار، وهو الذي يلحق الساحر من خلاله الضرر بالآخرين كقتل شخص أو إصابته بمرض معين[94]، ويكون صاحب هذا النوع محل كره وازدراء من الآخرين، وقد يؤدي ذلك إلى قتله ، يقول

العمري عند وصفه لمالي: "والفيل يصاد في بلاد الكفار المجاورة لهم بالسحر حقيقة لا مجازاً، والسحر بهذه البلاد كلها كثيرإلى غاية ، وخصوصاً ببلاد غانة وفي كل وقت يُتحاكم عند ملكهم بسببه، ويقال إن فلاناً قتل بالسحر أخي أو ولدي أو بنتي أو أختي ، ويحكم علي القاتل بالقصاص، ويقتل الساحر[95]، وقد أشار كل من السعدي وكعت إلى مواقف عدة للسحر قد تمت بالمنطقة[96]،وكان للسحرة في مملكة مالي مهابة كبيرة، وهم في الغالب من طبقة الحدادين، ويتكهنون بالمستقبل، وذلك بفحص أمعاء الحيوانات المضحاة، ويفعلون ما بوسعهم لإلقاء الرعب والفزع في قلوب السكان كخروجهم ليلاً في مواكب، مرتدين ملابس غريبة ولامعة[97] ،أما أدواتهم فقد تكون حزماً من أغصان الأشجار ، أو أكياساً من الحصى ، أو من فئران مجففة أو أحشاء حيوان، أو دماء ولحوم بشرية[98]،وعادة ما ترتبط شخصية رجال الدين بالسحر، حيث يمارسون طقوسهم الدينية والسحر جنباً إلى جنب[99] ، ففي غانة تنتظم حول المقر الملكي بيوت جميلة تعلوها القباب، والأسقف المخروطية، يعيش فيها كبار رجال الدين يقومون بأعمال السحر[100]، وقد ينسب السحر إلى بعض الملوك أمثال سندياتا كيتا ملك مالي، وسني علي ملك سنغاي[101] .

يتضح من خلال ما سبق أن السحر كان من الأمور الشائعة بالمنطقة، ولم تسلم طبقة من ممارسته حتى الطبقة الحاكمة ، فلماذا يلجأ الناس بمنطقة السودان الغربي إلى تداول السحر في حياتهم اليومية؟

قد يكون ذلك مبعوثه الخوف المسيطر على أفكارهم، فالطبيعة المحيطة بهم ، وما تحوية من أشجار ضخمة، وحشائش، وحيوانات مفترسة دفعتهم للجوء للسحر لتفادي شرها، أو قد يكون أحد التأثيرات القادمة إلى المنطقة من مصر في فترات قديمة حيث توجد إشارة إلى انتقال هذه التأثيرات من مصر إلى المنطقة[102].

**4 – الاســــــــــطورة او الخرافة *:** الأسطورة أو الخرافة من الأمور التي تسيطر على عقلية الفرد ببلاد السودان بصفة عامة، والسودان الغربي بصفة خاصة، وتتحكم بمسار حياته اليومية، وتتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل ، وقد يكون لطبيعة بلادهم دورٌ في تداول الأساطير بشكل كبير ، فمن الأساطير المألوفة لدى قبائل السنونك تلك الأسطورة التي تؤكد أن نجاح وازدهار إمبراطورتيهم القديمة يرجع إلى الإله الأكبر الثعبان "وجاد وبيدا"، حيث يرجع إليه السبب في نجاح التجارة وزيادة ثراء دولتهم ،وحين مات الإله ،ماتت على أثره تلك الإمبراطورية القديمة [103].

يستنتج من خلال هذا النص أن للأساطير مغزاها الديني ، بحكم عدم وجود دين محدد، تستند إليه المنطقة وبالتالي فإن للأسطورة دورها في ملأ الفراغ الديني الذي يعانيه الشخص بالمنطقة، فباتباعهم لهذه الأساطير يبتعدون عن الحقيقة التي يقرها العقل والمنطق ، وقد يكون الفراغ الذي تفرضه البيئة الصحراوية سبباً في توسيع مخيلة السكان مما يدفعهم إلى تداول الأساطير.

ثالثاً: الديانة الوثنية وشيوعها بمنطقة السودان الغربي:

الوثنية من أبرز الديانات الشائعة بالمنطقة، حيث يشير عثمان دان فوديو إلى ذلك بقوله: "لا يختلف اثنان في أن غالب بلاد السودان بلاد كفر..."[104]، وتتفرع عن هذه الديانة معتقدات تحمل عدة أسماء منها الطوطمية ، حيث كان لكل قبيلة طوطمها الخاص بها، والذي تنفرد به عن باقي القبائل، وكان بعضها نباتية، والآخر حيوانية[105]، وتكمن أهمية الطوطم في أنه يحقق الوحدة بين القبائل أو العشائر في حالة اشتراكها في عبادة طوطم واحد، وبالتالي فهو يمثل اللحمة الاجتماعية أو الرابط الاجتماعي بين أفراد القبيلة، أو بين القبائل [106]، فكان أهل غانة يعبدون الثعبان الضخم، وأهل سنغاي يعبدون حوتاً كبيراً، حيث يشير السعدي إلى ذلك بقوله:"...إن أهل سنغي كانوا مشركين، يعبدون وثناً فتمثل لهم الشيطان في صورة الحوت الذي يظهر لهم فوق الماء في البحر والحلقة في أنفه في أوقات معلومة، أو قتله زا الأيمن { اليمن} بحديد.."[107]،ومن المسميات الأخرى التي تندرج تحت الوثنية الإحيائية حيث يتجه الإحيائيون إلى عبادة الأسلاف بزعمهم أن حياة الإنسان لا تتوقف بمفارقة الروح للجسد، بل الموت غفوة وارتخاء من جراء ضعف يصيب القوة الحياتية، فهم يرون أن الموتى لازالوا يتدخلون في الشؤون الاجتماعية للأحياء، فهم حراس الأعراف، اليقظون على سلوك الناس[108] ،وبالتالي فإنهم حريصون على تقديم الذبائح لموتاهم، ويقربون لهم الخمور[109]،فكان أهل الموسي يقدسون أجدادهم الموتى[110]، كما قدس بعض الوثنيين الأرض، وكان لها شيخ مهمته حل المشاكل كافة التي قد تحدث حول ملكية الأرض، فكانت تقدم القرابين لها تقرباً منها واستعطافا[111]، فكانت قبائل المانادي تقدم قرابين للنهر لكي يفيض ويسقي كل الأراضي الزراعية [112]،كما أن عثمان دان فوديو في مخطوطه ( تعليم الإخوان بالأمور التي كفرنا بها ملوك السودان) يشير إلى:" أن سني علي وأعوانه كانوا يتصدقون للأشجار والأحجار، ويسألون حوائجهم عندها، ولا يغزون حتي يشاوروها وإن قدموا من سفر قصدوها ، ونزلوا عندها"[113].

يتضح من خلال هذا النص أثر الوسط النباتي والحيواني على عقلية الفرد بمنطقة السودان الغربي ، وبالتالي فإن الطبيعة أثرت على أفكاره ، وعلى نهج حياته الدينية، فاتخذ منها إلهاً يعبده، ينوب عن إله السماء (الإله الأعظم) [114]، وهذا يعني بأن له إيماناً بوجود إله واحد معبود في السماء.

يستنتج بعد دراسة سمات الحياة الاجتماعية بالمنطقة أن للبيئة والطقس أبلغ الأثر في تصرفات الســـــود، فالفرد هنا هو إنسان الطبيعة التي أثرت في عاداته ، وسلوكه ونهج حياته الدينية، حيث اعتبر هذه الأمور مكملة لشخصيته، ومن الصعب الاستغناء عنها، وكان الهدف الأساسي من عرض سمات الحياتين السياسية والاجتماعية بروح أفريقية هو الوقوف على أساس المشكلة، للتعرف فيما بعد على أبرز نواحي التأثير الإسلامي على المجالين وإلى أي مدى وصل هذا التأثير.

**الخاتمة**

يمكن للباحث في مؤثرات الشمال على منطقة السودان الغربي قبل دخول الإسلام التوصل لعدة نتائج أبرزها الآتي :

1. إن الصلة بين الشمال والجنوب كانت قديمة ، حيث إن المعاملات التجارية كانت قائمة بينهم مما سهل سبل الاتصال الأخرى ، وان كانت الإشارة إلى هذه الصلات محدودة.
2. إن منطقة السودان الغربي لم تكن بمعزل عن غيرها من المناطق ، بل كانت هناك صلات قديمة تربطها بمصر وبالشمال الأفريقي، ولم تقتصر مظاهر التأثير عليها، بل أثرت هي الأخرى على بعض مناحي الحياة بمصر.
3. إن أنظمة الحكم بالمنطقة تستند بالأساس الأول على القبيلة التي كان لها دور في تأسيس كيانات سياسية على مستوى عالٍ.
4. كان للحياة الاجتماعية دور في فرض وتحوير بعض الطقوس والعادات المتعلقة بالحياة السياسية كعادة توريث ابن الأخت والتي مرجعها لعدم تنظيم الزواج وتحديد النسل.
5. كان للبيئة والطقس أبلغ الأثر في تصرفات السود فالفرد هنا هو إنسان الطبيعة التي أثرت في عاداته وسلوكه ونهج حياته الدينية، حيث اعتبرت هذه الأمور مكملة لشخصيته ومن الصعب الاستغناء عنها.

## الهوامـــــــــــش:

(*) أطلق أغلب المؤرخين و الجغرافيين العرب هذا المصطلح على المنطقة ، نذكر منهم على سبيل المثال شمس الدين المقدسي في كتابة ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعه بريل، المحروسة، ط2،1909، ص.241؛ وأبوعبيد الله عبدالله البكري ، المسالك والممالك ، تحقيق أريان فان ليوفن،ج2،الدار العربية للكتاب ، تونس،(د.ت)، ص.837؛ وأبوالقاسم عبيد الله بن خُردادبة ،المسالك والممالك،ج1، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت،(د.ت)، ص.89.

1- باسيل ديفتسون ، لمحات من تاريخ أفريقيا ، ترجمة مركز البحوث و الدراسات الأفريقية بسبها ، مطابع الثورة العربية ، طرابلس،(د.ت)، ص.33.

2- ا.ف. غوتية، ماضي شمال افريقيا، تعريب هاشم الحسيني، دار الفرجاني، طرابلس،1970، ص.38.

*- الفينقيون: شعب سامي ولغتهم سامية شمالية وتتشابه مع اللغة العبرية الى حد كبير، وصلوا الى سواحل الشام قبل حوالي 2800ق.م وسيطروا على منطقة شاسعة تمتد من النهر الكبير شمالاً حتي جبال الكرمل جنوباً، أما من ناحية الشرق فتحدها سلسلة جبال لبنان الشرقية ، ومن ناحية الغرب تطل على البحر المتوسط، وكانت لهم العديد من المراكز التجارية الممتدة على طول ساحل البحر المتوسط ، للمزيد ينظُر: فيصل علي اسعد الجربي، الفنيقيون في ليبيا من 1100ق.م حتي القرن الثاني الميلادي، الدار الجماهيرية للنشر ، سرت 1996 ، ص. ص.27،26.

3- جون اليف ،الأفارقة تاريخ قارة ، ترجمة امل أبو موسى ، الدار الجماهيرية للنشر، مصراته،2001، ص. 61.

4- ظاهر جاسم محمد، دراسات تاريخية في العلاقات العربية الأفريقية، دار شموع الثقافة،الزاوية،2003ف، ص.15.

5- بوفيل ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة الهادي أبولقمة، محمد عزيز، منشورات جامعة قاريونس،بنغازي،1998، ص.131.

6- أ.ف.غوتية، مرجع سابق،ص.39.

7- ديفيد و.فيليبسون، علم الآثار الأفريقي، ترجمة أُسامة عبدالرحمن النور، منشورات إلجا، مالطا ،2002، ص.250، ص. ص.252-253.

*- الجرمنتيون :هم قبائل ليبية قديمة سيطرت على الصحراء منذ القدم حتي الفتح الإسلامي، وتحكمت في طرق التجارة بمنطقة فزان، واتخذوا من جرمة عاصمة لهم. ويري البعض أن قبائل الجرامنت هي نفسها قبائل الطوارق في حين يراهم البعض أنهم جنس أسمر كانوا يتمركزون في جبال تبستى . للمزيد يُنظر :تشارلز دانليز، الجرمنتيون سكان جنوب ليبيا القدماء ، ترجمة أحمد اليازوري، مكتبة الفرجاني طرابلس،1974، ص.36، ص.44.

8- المرجع نفسه،ص.43.

*- فـــزان: تقع جنوب مدينة طرابلس وتبعد عنها حوالي 800كم، وكانت لها علاقات تجارية وثقافية مع مدينتي تنبكت وجاو، ينُظر: الحسن بن محمد الوزان ، وصف أفريقيا، ترجمة: محمد حجي ،محمد الأخضر،ج2، دارالغرب الإسلامي، بيروت ط2، ،1923 ، ص.29.

9- جوزيف كي زيربو، تاريخ أفريقيا السوداء ، ترجمة عقيل الشيخ حسن ، الدار الجماهيرية للنشر، طرابلس 2001، ص.ص.219،218.

*النسامونيس : هي أحدى القبائل الليبية ورد ذكرها في المصادر اليونانية ، حيث أشار إليها هيردوت إذ ذكر بأنها قبيلة كثيرة العدد سكنت المنطقة الشرقية لخليج سرت، وقد وردت ضمن القبائل الواقعة وراء خليج سرت وقورينا وكانت تترك مواقعها على الساحل في فصل الصيف وترحل إلى واحة أوجلة لجني ثمار النخيل، للمزيد يُنظر: هيردوت ، الكتاب السكيثي والكتاب الليبي، ترجمة محمد المبروك الذويب، منشورات جامعه قاريونس، بنغازي،2003، فقرة (172)؛ عبدالسلام شلوف،"قبيلة النسامونيس،"مجلة قاريونس العلمية، العدد الأول والثاني ، منشورات قاريونس ، بنغازي ، ص.143.

10- تشارلز دانيلز، مرجع سابق ، ص. 51.

11- ديفيد و . فيليبسون، مرجع سابق ، ص. 255.

*- اختلف الباحثون في تحديد دخول الإبل إلى صحراء أفريقيا ما بين القرن الرابع ميلادي ، كما هو يانيكار، الوثنية والإسلام، تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب أفريقية، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ،1998، أو قُبيل القرن الثاني قبل الميلاد ، شارل اندريه جوليان، تاريخ أفريقيا، ترجمت طلعت عوضي أباظة، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة،(د.ت) ، ويرى الأخر أن الجمل لم يدخل إلى الصحراء الكبرى إلا حوالي سنه 100 ميلاد ، وقد جاء مع الرومان لحاجتهم له، بيترل. بيرنشتاين، سطوة الذهب ،ترجمة : مها حسن بحبوح، مكتبة العبيكان، الرياض،(د.ت).

12- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

13- محمد عبد الفتاح إبراهيم، أفريقية من السنغال إلى نهر جوبا، دار الطباعة الحديثة ،مصر،(د.ت)، ص.66.

14- غونتر سمولا ،" الصحراء الكبرى الممتدة بين أفريقيا السمراء والعالم القديم،" الصحراء الكبرى (سلسلة الدراسات المترجمة)، منشورات جهاد الليبيين ، طرابلس1979، ص.168.

15- عبدالله عبدالرزاق إبراهيم، شوقي الجمل ،تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، دار الثقافة،القاهرة،2001، ص.18.

16- جون اليف، مرجع سابق ،ص.89.

17- ا.ف. غوتيه، مرجع سابق، ص.22، ص. 143.

18- الشيخ عنتاديوب، الأمم الزنجية والثقافة، ترجمة ريما إسماعيل، الدار الجماهيرية مصراتة ،2001، ص.40.

19- محمد بيومي مهران ، مصر والشرق الأدنى القديم الحضارة المصرية القديمة، ج1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، ص.413.

20- الشيخ عنتاديوب، مرجع سابق،ص.46.

21- المرجع نفسه، ص.50.

22- نبيله حسن محمد، في تاريخ الحضارة الإسلامية ، دار المعرفة ، مصر ، 2003 ، ص241.

23- محمد علي الأطرش، الموروثات الاستعمارية السياسية والاقتصادية والاجتماعية في افريقيا جنوب الصحراء، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة السابع من ابريل الزاوية،2003، ص41.
24- نبيله حسن محمد، مرجع سابق ، ص242.
25- عبدالرحمن السعدي ، تاريخ السودان، طبعة هوداس،باريس،1881م، ص.9؛امطير سعد غيث، التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، دار الرواد ، بيروت،1996، ص.71.
26- البكري، مصدر سابق ، ص.ص.871 - 872.
27- أحمد الشكري ، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية، منشورات معهد الدراسات الافريقية، الرباط ،1997، ص.22.
28- باسيل دفيتسون، مرجع سابق ص.ص.46-47.
29- محمد عوض الله الأمين، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي، دار المجمع العلمي، جدة،1979، ص.ص.60-61؛ ك.مادهو يانيكار، مرجع سابق، ص.426.
30- أبو امادوبا، الثورة الإسلامية ضد الأستقراطية التقليدية في أقصي غرب أفريقيا وأبعادها السياسية والاجتماعية والثقافية فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الفاتح، 2005ف، ص.33.
*- كرمن فرا بمعني حاكم كرمن وهذه الكلمة في أصل لغة الماندنجو ومعناها رئيس أو حاكم أو قائد عسكري ، كرمن فار هو أرفع منصب بعد الأسكيا، وقد شغله عمر أخو الأسكيا الحاج محمد ، دندفار بمعني رئيس أو حاكم دندفي جنوب السنغال، باغن فار رئيس باغن أو حاكمها، وباغن مقاطعة تقع بين بحيرة ديبو وتنبكت. للمزيد يُنظر: محمد الحاج كعت ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر هوداس،باريس،1964،ص.11؛ ك . مادهو يانيكار ، مرجع سابق ، ص . 427.
31- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
32- مارمول كرفجال، تاريخ أفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون ، ج1،مكتبة المعارف ، الرباط،1984، ص.52.
33- البكري ، مصدر سابق، ص.876.
34- جوان جوزيف ، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، ترجمة : مختار السويفي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، 1984،ص.10.
35- المرجع نفسه، ص.11.
36- شهاب الدين بن فضل العمري، مسالك الابصار في ممالك الأمصار، ج4،مطبعة شتراوس ،ألمانيا،1988. ص.115.
37- المصدر نفسه، ص.ص.115-116.
38- ابو أمادوبا، مرجع سابق، ص.31.

39- محمود سلام زناتي، الإسلام والتقاليد القبلية في أفريقية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،1969، ص.99.
40- البكري ،مصدر سابق ، ص.871.
*- البكم وهم أهل بلد سامة من أعمال غانة، يُنظر: عبدالعزيز الحلوي، "الأحوال الاجتماعية لسكان الصحراء الكبرى والسودان الغربي من خلال بعض كتب الرحلات" أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء لعام 1998،(تنظيم كليه الآداب بتطوان بالمغرب، وجمعيه الدعوة الإسلامية)، منشورات كلية الدعوة الإسلامية،طرابلس،1999، ص. 430.
41- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.
42- سلوى محمد لبيب، المغرب العربي ودول الجوار الأفريقي، دار الإشعاع ، القاهرة،1989، ص.27.
43- البكري، مصدر سابق، ص.872.
44- المصدر نفسه، ص.873.
45- العمري، مصدر سابق ، ص.115.
46- ابن عباس القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،ج5، المؤسسة المصرية للتأليف ، مصر (د.ت) ص.300.
47- عبدالرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ج7، دار الكتب العلمية، بيروت،1992، ص.368.
48- ك. مادهو يانيكار، مرجع سابق ، ص465.
49- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
50-جوزيف كي زيربو، مرجع سابق ، ص .117.
51- ك.ماادهو يانيكار، مرجع سابق ، ص.465.
52- نبيله حسن محمد، مرجع سابق، ص.ص.240-241.
53- الهادي المبروك الدالي، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء، مطابع الوحدة العربية، الزاوية ،2001، ص.ص.17-25.
54- حميد دولاب ضيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها 1993، ص.66.
55- أبو عبدالله محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،مج1، عالم الكتب ، بيروت،(د.ت) ، ص.19.
56- دونالدل وايدنر ، تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة : علي أحمد فخري ، شوقي الجمل،ج1، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة،1976، ص.45.
57- زكريا بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر، بيروت ،(د.ت)، ص .19.
58- البكري، مصدر سابق ، ص.876.

59- أبو الحسن ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، 1970، ص.91.
60- القزويني، مصدر سابق ، ص.24.
61- محمود سلام زناتي، مرجع سابق، ص.11.
62- البكري ، مصدر سابق ، ص.872.
63- القزويني ، مصدر سابق ، ص.24.
64- الهادي الدالي، ص. 26.
65- يوسف روكز، أفريقيا السوداء سياسة وحضارة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، ط2 ،1986، ص.56.
66- امطير سعد غيث، التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، دار الرواد، بيروت ،1996، ص.202.
67- ك.مادهو يانيكار، مرجع سابق ،ص.427.
68- البكري، مصدر سابق ، ص.ص.871-872.
69- الإدريسي، مصدر سابق، ص.20.
70- العمري ، مصدر سابق ، ص.128؛ الهادي الدالي ، مرجع سابق، ص.30.
71- ابوعبدالله محمد ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ، تحقيق على المنتصر الكتاني ، ج2، مؤسسة الرسالة ،بيروت ، 1985،ص.793؛محمدعوض الله، مرجع سابق ،ص.63.
72- الهادي الدالي، مرجع سابق،ص.30.
73- موسى احمد كمرا، مخطوط زهور البساتين في تاريخ السوادين، رقم مك82-220،شعبة الوثائق والمخطوطات بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ص.121.
74- الهادي الدالي، مرجع سابق،ص.30.
75- عبدالله أحمد بشير يولا، العناصر الأساسية المكونة للحضارة الزنجية أم للفكر الأفريقي المغترب، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها،1982، ص.16.
76- الهادي الدالي، مرجع سابق، ص.41.
77- ابن خلدون، مصدر سابق ،ج1، ص.92.
78- ابو أمادوبا، مرجع سابق ، ص.31.
79- الهادي الدالي، مرجع سابق، ص.40.
80- عبدالرحمن شلقم، أفريقيا القادمة دراسة في الفن و الأدب والتاريخ الأفريقي، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس،1982، ص.67.
81- المرجع نفسه ،ص.77، ص.80؛ محمد اديون ،"افكار حول القناع وأدواره في افريقيا"، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء ، 1998تنظيم كلية الآداب بتطوان ، بالمغرب ، وجمعية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الاسلامية ، طرابلس 1999 ص. 563.

82- الإدريسي، مصدر سابق ، ص22.
83- عبد الرحمن عمر الماحي، الدعوة الإسلامية في أفريقية الواقع والمستقبل، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ،(د.ت)، ص.17.
84- العمري ، مصدر سابق ، ص .117.
85- محمود سلام زناتي ، مرجع سابق ، ص.72.
86- الإدريسي ، مصدر سابق ، ص.22.
87- الوزان، مصدر سابق ج1، ص.ص.159-160.
88- السعدي ، مصدر سابق ، ص.5.
89- العمري ، مصدر سابق ، ص.110.
90- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص793.
91- يوسف روكز، مرجع سابق ، ص.19.
92- علي عبد الواحد وافي، غرائب النظم والتقاليد والعادات، دار النهضة مصر للطباعة، القاهرة،(د.ت)، ص. 172.
93- امين أسبر، أفريقيا سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، دار دمشق، بيروت ،1985،ص. 176.
94- محمد كامل عبدالصمد ، موسوعة غرائب المعتقدات والعادات معتقدات غريبة مازالت شائعة،ج5،مكتبة دار العربية للكتاب، القاهرة، 1995، ض.232.
95- العمري ، مصدر سابق ، ص.114 .
96- السعدي ، مصدر سابق، ص99؛ كعت، مصدر سابق، ص. 130 .
97- نبيلة حسن محمد ، مرجع سابق ، ص ، ص . 248-249 .
98- محمد كامل عبدالصمد، مرجع سابق ، ص 231 .
99- عبد المنعم شميس، كامل عبدالمجيد، من الشرق والغرب غانا تقاليد وثقافات، الدار القومية فرع الساحل ،القاهرة (د.ت)، ص.103 .
100- جوان جوزيف، مرجع سابق، ص .58 .
101- ك. مادهو يانيكار، مرجع سابق ، ص. 465.
102- حسن نعمة، الأعياد العادات والتقاليد والمعتقدات عبر التاريخ، رشاد بريس للطباعة، بيروت،2001، ص.ص. 137-140 .
*- **الخرافـــــة** أو ما يعرف بالمعتقدات الخرافية هي تلك التي برهنت أنها على خلاف مع الحقائق الموضوعية، والتي يتحمل أن يشارك في الاعتقاد بها عدد كبير من ابناء المجتمع، والمعني اللغوي للخرافة يشير الي أسم رجل من عذرة استهوته الجن ، فكان يتحدث بما رأى فكذبوه وقالوا حديث خرافة، يُنظر: عبدالرحمن عيسوي ، سيكولوجية الخرافة والتفكير العلمي مع دراسة ميدانية مقارنة على الشباب المصري والعربي، منشأة المعارف ، مصر ، 1982، ص.ص.11 - 12.
103- جوان جوزيف ، مرجع سابق ، ص .59.

104- عثمان دان فوديو، تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان، مكتبة مخطوطات نيجريا ، مخطوط مكتبة الباحث ، ص.9 .
105- عبد الرحمن عمر الماحي، مرجع سابق ، ص. 15؛ علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق ، ص. ص 19-20.
106- الهادي الدالي، مرجع سابق، ص.71 .
107- السعدي ، مصدر سابق، ص.4 .
108- عبد الرحمن عمر الماحي، مرجع سايق ، ص.15؛ أمين أسبر، مرجع سابق ،ص.173 .
109- عبدالله أحمد بشير يولا، مرجع سابق، ص.27؛ محمود سلام زناتي ، مرجع سابق، ص .103 .
110- السعدي، مصدر سابق ، ص.74.
111- الهادي الدالي ، مرجع سابق، ص.72 .
112- أمين أسبر، مرجع سابق ، ص.172 .
113- عثمان دان فوديو ، تعليم الإخوان بالأمور التي كفرنا بها ملوك السودان، مكتبة مخطوطات نيجيريا ،مخطوط مكتبة الباحث، ص.12 .
114- عبد اللطيف محمد البوني، الأديان التقليدية في أفريقية مشروع الرؤية الإسلامية (الإسلام في أفريقية مجموعة بحوث)، المطبعة العملية، دمشق ،2001ف، ص.14 ؛ محمد عبد الفتاح ابراهيم، أفريقية الأرض والناس مع العناية بسمات ومؤثرات بعض الطوابع الثقافية الإفريقية ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة،(د.ت) ، ص.91؛ محمود سلام زناتي، مرجع سابق ص.193 .